

نظريتي الحقيقة لدى وليم جيمس

بقلم الدكتور أحمد ماضي

الكلاسيكية قامت ابتداء من فيخته (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) باصاافات جديدة الى مفهوم الحقيقة . فقد كان هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) يقول « الفكرة حقيقة في ذاتها ولذاتها » كما انه كان أول فيلسوف أدرك ان الحقيقة تمثل عملية Process في تطور المعرفة وليست شيئا نصل اليه مرة والى الابد .

وفي نهاية القرن المنصرم وأواسط القرن العشرين يلاحظ انزعة فلسفية لاعقلانية اولت الحقيقة أهمية كبرى . فالوجودية ، اذ اقتفت أثر كيركيفارد (١٨١٢ - ١٨٥٥ م) ، رأت ان الحقيقة عبارة عن صورة لوضع الشخصية النفسي . زد على ذلك انها عارضت الحقيقة الموضوعية بالحقيقة الذاتية التي تبلغ الوجود بالحدس . أما فلسفة الحياة (شوبنهارد ، زيمل) فقد وجدت في الحقيقة تعبيراً عن عواطف وانفعالات وحاجات لا عقلانية معينة .

وبالإضافة الى ما تقدم حقق اتجاه آخر (التجريبية الذاتية) بعض الكاسب في هذا المجال . فعلى سبيل المثال نرى ان راسل يعتبر الحقيقة موافقة التفكير لاحساسات الذات . كما ان التجريبية العلمية (الوضعية المحدثة) التي هي ضرب من ضروب التجريبية الذاتية اعتبرت فحوى الحقيقة اتساق موضوعات العلم مع الخبرة الحسية للذات الفردية (شليك ونيراث) وفي التحليل الاخير انسجام الموضوعات فيما بينها في نظام معين .

وهناك اتجاه آخر لا يمكن التفاضي عنه الا وهو ما يسمى المذهب الاتفاقي Conventionalism يؤكد مؤسسه العالم - الفيلسوف الفرنسي بوانكاريه (١٨٥٤ - ١٩١٢ م) ونصيره كارناب على ان تعرب الحقيقة ومضمونها يحملان طابعا اتفاقيا (مشروطا) . وحتى تكتمل الصورة الى حد ما ، لا مناص من الإشارة الى ان الحقيقة تبدو وفقا للمثالية الموضوعية المعاصرة (ج. مارينان ، ن. هارتمان ، واينهد) موضوعا خاصا .

مما تقدم يتبين لنا ان هناك آراء متضاربة ومذاهب متناحرة في فهم الحقيقة . ولكن ما وجهة نظر فيلسوفنا وليم جيمس في هذه المسألة ؟ هل هي منسجمة مع أحد هذه الاتجاهات أم مناقضة أم تحمل طابعا تليقيا ؟

بادئ ذي بدء ينبغي القول ان الفكر الفلسفي السابق قد أثر الى حد ما في نزعة وليم جيمس الفلسفية مع ان فهمه للحقيقة اتسم بمميزات جديدة كل الجودة . وهنا لا بد من الإشارة الى ان وليم جيمس تأثر بصورة مباشرة بالاتجاه النعفي وبآراء مؤسس البراجماتية

كانت الحقيقة ولا تزال تشغل أحد مراكز الصدارة في المذاهب الفلسفية التي ظهرت على مسدى اكثر من ألفي عام من تطور الفكر البشري . وينبغي الإشارة الى ان هذه المشكلة كانت ولا تزال موضع نزاع ليس فقط بين الفلاسفة أنفسهم فحسب بل وفي اوساط الناس العاديين . واذا ما استعرضنا تاريخ الفكر البشري نرى ان الحقيقة فهتت على أنحاء مختلفة . فعلى سبيل المثال كانت الحقيقة في فلسفات ديموقريطس (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) وايبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) ولوكرتس (٩٩ - ٥٥ ق.م) تعني موافقة المعارف وانسجامها مع الموضوعات ، الاشياء . كما ان موقف ارسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) منها كان الى حد ما مماثلا لفهم هؤلاء لها . فقد ارتبط مفهوم الحقيقة لديه بانعكاس صحيح للموضوع في الذات . وطالما اننا بصدد الحديث عن الفلاسفة الاغريق فلا بد من الإشارة الى بيرون (٣٦٥ - ٢٧٥ ق.م) أحد رواد المذهب الشكي الذي أنكر معيار الحقيقة على أساس نفي الحقيقة نفسها بصورة مطلقة .

وفي العصر الحديث احتدى الفلاسفة الانكليز والفرنسيون وفيما بعد فيوردباخ الالمانى (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) حذو الفلاسفة المذكورين آنفا في فهمهم للحقيقة . فقد طابقت هيلفسيوس (١٧١٥ - ١٧٧١ م) وفيوردباخ ما بين الحقيقة ومضمون الاحاسيس البشرية . كما ان لينتز (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) اعتبر الحقيقة اتساق الموضوعات العقلية مع الاشياء على الرغم من ان الطابع العام لفلسفته اتسم بالمثالية .

واذا كان فهم هؤلاء الفلاسفة للحقيقة يمكن اعتباره موضوعيا وواقعا ، فقد ظهر اتجاه آخر اتصف موقفه بالمثالية والذاتية ، ويعتبر بروتوغورس (٤٨١ - ٤١١ ق.م) رائد هذا الاتجاه . فقد أكد على ان (الانسان معيار جميع الاشياء) وفيما بعد طور هذا الاتجاه وصار أنصاره ينظرون الى الحقيقة على انها خاصية للذات تكمن في اتساق التفكير مع ذاته ، مع صورته القبلية (كانط) أو صفة غير مشروطة ازلية ، لا زمانية للموضوعات المثالية (افلاطون ، اغسطين) .

وهناك نزعة أخرى اتصف موقف انصارها من الحقيقة بالفرنزية . ففي العصر الوسيط دعا الفيلسوف اللاهوتي اغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م) الى فطرية المفاهيم والاحكام الصادقة . وفي العصر الحديث نجد ان راي ديكرات (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) وأتباعه وأنصار افلاطون في جامعة كمبردج مماثل لما تبناه القديس اغسطين .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال ان الفلسفة الالمانية

بيرس . ففي عام ١٨٧٢ م قرأ بيرس في اجتماعات « النسابي
المتافيزيقي » تقريراً نشر بعد سنوات على شكل مقالين « تقييصة
الاعتقاد » و « كيف نجعل أفكارنا واضحة » . وما هو جدير بالملاحظة
ان هذين المقالين اشتغلا على جميع المبادئ الأساسية للفلسفة
البراجماتية التي قدر لها ان تصبح نافذة وواسعة الانتشار .

خلاصة القول ان الاساس النظري للبراجماتية قد تكون من افكار

بيرس الثلاث الآتية :

- ١ - التفكير عبارة عن تحقيق لرضا نفسي ذاتي .
- ٢ - الحقيقة تمثل ما يوصلنا الى الهدف .
- ٣ - المطابقة الفعلية بين الأشياء ومجموعة نتائجها العملية
أو الحسية .

ليس من شك ان نظرية الحقيقة لدى جيمس ما هي الا تطوير
لآراء بيرس . وهنا لا بد من التساؤل : كيف فهم جيمس الحقيقة ؟

كتب جيمس في موضوع « الحقيقة » الشيء الكثير ، بيد ان
آراءه تتسم بالتناقض والغموض . وبالرغم من ذلك يمكن حصر وتحديد
فهمه . فقد أورد عدة تعاريف ، الا ان أهمها وما يصادف غالباً في
أعماله التعاريف التالية :

- ١ - الحقيقة عبارة عن مطابقة الفكرة للواقع .
- ٢ - الحقيقة هي القدرة على العمل .
- ٣ - الحقيقة ما يدعو الى الرضا والارتياح .
- ٤ - الحقيقة ما يحقق النجاح والفائدة .
- ٥ - الحقيقة عبارة عن عملية التحقق او التثبت .
- ٦ - الحقيقة تسجم مع ارادة الاعتقاد .

أول ما يلاحظ ان جيمس لم يتخل عن تعريف الكلاسيكي للحقيقة
أي تعريف أرسطوطاليس . فالحقيقة بالنسبة للفيلسوف الاغريقي هي
انسجام ما في العقل مع الظروف الواقعية . وكذا الامر بالنسبة
لفيلسوفنا البراجماتي . يقول جيمس : « الحقيقة صفة او خاصية
لبعض أفكارنا . فهي تعني اتفاقها مع الواقع تماماً ، مثلما يعني الباطل
اختلافها معه . وكلا البراجماتيين والعقليين يتقبلون هذا التفسير كأم
أكد ثابت » (١) . وفي المحاضرة السادسة « مفهوم البراجماتية
للحقيقة » يشير جيمس الى ان « الحق - كما يخبركم أي قاموس -
هو صفة او خاصية لبعض أفكار معينة لدينا بالذات . وهذه الصفة
تعني « اتفاق » هذه الأفكار مع الحقيقة او الواقع تماماً مثلما الزور
اختلافها مع الحقيقة او الواقع » (٢) .

ينبغي القول ان تعريف الحقيقة بقولنا انها اتفاق الفكرة مع
الواقع هو في واقع الامر تعريف صسوري وتجريدي ، فهذا التعريف
يحتمل تفسيرات مناقضة لبعضها البعض . وقد استغل جيمس هذه
الوضعية وتساءل : ماذا نعني ب «الواقع» ؟ ماذا نقصد ب «المطابقة» ؟
واذ يجيب عن هذه التساؤلات ، يشن حملة شعواء ضد المثالية
المطلقة التي تسير على خطى هيغل . فهو ينتقد بعنف برادلي ويقول :
اذا كان الواقع هو المطلق فان الموقف الوحيد منه يتجلى في تأمله
فقط . ويمكن اعتبار أفكارنا عنه صادقة طالما انها قادرة على محاكاته .
وفي هذه الحالة ستكون الحقيقة واحدة ، وطالما أدركناها فستبقى كاملة
غير متغيرة مثل نموذجها . انها ستكون حقيقة بحرف كبير .

ويتساءل جيمس قائلاً : من بحاجة الى مثل هذا الواقع المطلق
وهذه الحقيقة المطلقة ؟ ويجيب قائلاً : عندما يدور الحديث على صدق
أو كذب أية فكرة ، يجب علينا أن نتذكر القاعدة البراجماتية « ان
البراجماتية تسأل سؤالها المألوف ، فهي تقول : اذا سلمنا بصحة
فكرة او عقيدة ، فما هو الفرق للموس الذي يحدثه كونها صحيحة

- (١) وليام جيمس - البراجماتية - القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٥١ .
- (٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

في الحياة الواقعة الفعلية لاي امرى ؟ ما هي الخبرات التي (ربما)
تختلف عن تلك الخبرات التي تحصل اذا كان الاعتقاد باطلا ؟ كيف
ستتحقق الحقيقة ؟ وبالاختصار ما هي القيمة العنصرية للحقيقة ،
مقدرة تجريبياً ؟ » (٣) .

ان الفكرة الصادقة التي لا تفضي الى نتائج عملية تختلف جذرياً
عن تلك النتائج التي يمكن ان تحدث في حال كذب الفكرة تدل على ان
الحوار في صدق او بطلان الفكرة لا جدوى من وراءه . ذلك لان
الصدق ليس ضرورياً في حد ذاته وانما من أجل ان يرشدنا في اعمالنا
ويوجه تجاربنا . وبهذا التصدد يقول جيمس ما يلي : ان الطريقة
البراجماتية ... هي محاولة تفسير كل فكرة بتتبع وافتناء اثر نتائجها
العملية كل على حدة .

ما الفرق الذي يحدث لاي امرى - من الوجهة العملية - اذا
كانت هذه الفكرة صحيحة بدلا من ذلك ؟

اذا لم يكن ثمة فرق عملي يمكن تتبعه ، فالإبدال إذن تعني من
الوجهة العملية نفس الشيء ، ومن ثم فان أي نزاع أو خصام بشأنها ،
نزاع عقيم تافه معدوم الجدوى .

أينما يكن النزاع جدياً ، فينبغي علينا ان يكون في وسعنا أن
نبين فرقا عملياً لا بد وأن يحدث من جراء صحة جانب أو آخر (٤) .

نفهم من هذا الكلام ان صدق أو بطلان أي فكرة لا يتبع مطابقتها
أو عدم اتفاقها مع الواقع . فمقياس الصدق أو الزور يكمن في النتائج
العملية . « ان طبيعة الحقيقة في اتفاقها مع الواقع . واي شيء
ينفق مع الواقع من المحتمل ان يؤدي الى نتائج مرضية فسي
الممارسة » (٥) .

ان اختلاف النتائج ناجم عن صسلة الفكرة بالواقع . فالواقع
الموضوعي هو الاساس الذي يجب أن تستند اليه النتائج ولفرق
العملية والا أصبح مقياس الصدق والزور ذاتياً وشخصياً ، أضف الى
ذلك ان التركيز على النتائج يفضي الى معاداة الفكر النظري . وبهذا
الصدق يقول براجماتي آخر هو جون ديوي ما يلي : « ومن وجهة النظر
العامة يمكن القول ان الموقف البراجماتي هو « صرف النظر عن الأشياء
والمبادئ والمقولات الاولى والضرورات المزعومة والنظر الى ناحية الأشياء
الاخيرة ، الثمرات ، النتائج ، الواقع » (٦) .

وعلاوة على ما تقدم يرفض وليام جيمس تصور المطابقة المتسائل
الذي يؤكد على ان أفكارنا يجب ان تكون نسخة عن الواقع . ومع انه
لا يشير الى نظرية الانعكاس اتوافقية بوضوح وصراحة لا ان المقصود
من رفض تصور المطابقة هو تصويب الرماح ضد هذه النظرية .

ومن الطريف الإشارة الى ان جيمس لا ينفي ان الإنكار ، في
بعض الحالات ، يمكن ان تحاكي الواقع . فهو يقول : « ان الحكاكة
هي احدى الطرائف الحقيقية للمعرفة » . ويردف قائلاً : « ان تصوراتنا
الصادقة عن الأشياء المحسوسة تحاكيها بحق » .

تتلخص فكرة جيمس الأساسية في ان المحاكاة يمكن ان تحدث
في مطابقة الأفكار للواقع ، الا انها غير ممكنة على نحو دائم وعمدومة
الاهمية بالنسبة للمعرفة وللصدق في آن واحد . ان التشابه مع الواقع
ليس أكثر من خاصية عرضية للأفكار الصادقة . فإذا كنا نريد ان
تتطابق أفكارنا مع اتواقع ، فلا بد من ان تعمل في التجربة . يجب ان
ترشدنا وتقودنا من جزء الى أجزاء أخرى في التجربة . وبكلمات أخرى
يجب ان تفضي الى نتائج حسنة . « فالحقيقة عنده (أي عند

(٣) وليام جيمس - البراجماتية - ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٤) نفس المرجع - ص ٦٤ .

(٥) Patrick G. T. W. Introduction to Philosophy.

London, 1961, P. 376.

(٦) فلسفة القرن العشرين - مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية

المعاصرة - القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤٠ .

البراهماتي (تصبح اسما تصنيفيا لكل أنواع القيم العاملة المحددة في الخبرة) (٧) .

ان القدرة على العمل تشكل جانبا هاما من مضمون مفهوم الحقيقة لدى جيمس . فهو يعلن ما معناه : ليس بمقدوركم ان تقولوا ما تعنيه كلمة « صادق » في استعمالها بالنسبة لعبارة من العبارات دونها توجه الى مفهوم عمل العبارة العطاء ، والقدرة على العمل تعني أي أشكال للعمل أكانت فيزيائية أم ذهنية ، وافية أم ممكنة .

لا مرأ في ان الأفكار الصادقة قادرة على العمل بنجاح وتفضي الى الرضا والاستحسان . بيد ان قدرة الفكرة على العمل ناجمة من صدقها أولا وقبل كل شيء . فلا مناص من ان تكون الفكرة حقيقية كي تعمل بنجاح . ذلك لان صدق الفكرة لا يعتمد على قدرتها على العمل وانما على صلتها بالموضوع . ان الموضوع هو الذي يحدد الصدق والباطل . والذي لا شك فيه هو ان الفكرة الصادقة لا بد ان تكون قادرة على العمل آجلا أم عاجلا . فانسجامها مع الواقع سيمنحها القدرة على العمل وسيؤدي الى نتائج مرضية .

والجدير بالذكر ان جيمس يقرر بان وجود الموضوع ، عندما تؤكد الفكرة الحققة ، هو السبب الوحيد لكون الفكرة قادرة على العمل بنجاح « ان وجود الشيء كما تؤكد الفكرة « حقا » ، هو السبب الوحيد في حالات لا حصر لها في كون الفكرة تعمل بنجاح » (٨) الا انه سرعان ما يشير الى ان صدق الفكرة يعني قدرتها على العمل . « حينئذ ستمني حقيقة الفكرة أو صحتها أعمالها فقط » (٩) .

وباختصار ان الفكرة تعمل دون ان تكون نسخة من الواقع ، كما ان المحاكاة غير ممكنة بصورة دائمة . وبناء على ذلك يفترض جيمس ان « العمل الناجح » هو المطابقة مع الواقع ، الاتفاق معه ، وبالتالي هو الذي يشكل دلالة الحقيقة . يقول جيمس : « ان شيلر يقول ان الحقيقي هو ذلك الذي يعمل ويؤدي » (١٠) . ويردف قائلا : « وديوي يقول ان الحقيقة هي ما تعطي ترضية واشباعا أو «اكفا» » (١١) . من الجلي جدا ان هناك أفكارا كثيرة قادرة على العمل في حياة الانسان الخاصة وتؤدي الى نتائج مرضية وتبعث على السرور وتحقق الرضا الذاتي . بيد ان مثل هذه الأفكار لا تتسجم مع الواقع الموضوعي . كما ان هناك أفكارا غير قادرة على العمل في حينها ولا تقود الى طريق مفروض بالورود بالرغم من صدقها . وما دفاع جوردانو برونو عن تعاليم كوبرنيكوس الا أسطع مثال على ذلك ، فقد أودى دفاعه عن نظرية دوران الارض حول الشمس بحياته وقاده الى الموت حرقا في ساحة من ساحات روما .

صفوة القول : ان منطقات جيمس لا تتحدد ولا تعرف الصدق بصورة موضوعية ، وذلك لان الأفكار غير الصادقة قد تفضي بنا الى نتائج مرضية . زد على ذلك ان الأفكار الصادقة قد لا تكون قادرة على العمل بالنسبة لشخص ما وغير محققة لامانيه وآماله ورفيائه . وهذا يعني ان « البراهماتي قد تحوي على ما هو غير حقيقي أو تطرد ما هو حقيقي » (١٢) .

ان هذه النزعة تنضج وتتلور عندما يدخل جيمس ارادة الاعتقاد في تعريف الحقيقة . فهو يقول : « ما يحسن بنا ان نعتقده لانسه أحسن لنا » . هذه العبارة تشبه تماما تعريف الحقيقة . انها تقترب جدا من القول : ما ينبغي لنا ان نعتقده . وفي ذلك التعريف لن نجد أحد منكم أي استهجان أو غرابة . ألا ينبغي لنا ألا نعتقد أبدا ما هو أحسن لنا أن نعتقده ؟

وهل في وسعنا عندئذ أن نحتفظ بفكرة ما هو أحسن لنا ، وما هو صحيح وحقيقي لنا منفردين - كل على حدة باستمرار ؟

ان البراهماتي تقول لا ، وأنا أوافقها موافقة تامة » (١٣) . هنا بالذات يكمن جوهر الفهم البراهماتي للحقيقة . فهي تقود تابعة لارادة الاعتقاد وتستحيل الى ظاهرة ذاتية مطلقة . أضف الى ذلك انها تحمل طابعا لا عقلانيا . فاية دوافع ، حتى تلك التي لا صلة لها بالمنطق والعقل ، يمكن ان تشكل أساسا كافيا للاعتقاد بصدق هذه الفكرة أو تلك . يكفي ان نعتقد بهذا الشيء أو ذلك كي نكون فكرة عن ما هو حقيقي .

لا شك في ان مثل هذه العمليات النفسانية تصادف في حياة بعض الناس . فليس نادرا ما نعتقد ، تلبية لرغبتنا وحاجتنا ، في صدق موضوعات بعيدة كل البعد عن الحقيقة وأشباهاها . فضلا عن العمليات النفسانية ، فان التاريخ يشهد على ان كثيرا من الأفكار التي كانت نافعة لهذا الحاكم أو ذاك ومفيدة لهذه المؤسسة أو تلك اعتبرت حقة .

ان ذاتية الحقيقة تفضي على الموضوعية وتفضي الى كثرة من الحقائق . فجيمس اذ يقول ان صدق الفكرة يحدد بالرضا ، يؤكد على ان الرضا مصطلح ذاتي . وهذا يعني ان الناس سيفهمون الرضا على انحاء متباينة . ومن هنا تنجم الكثرة في الحقائق التي تحقق الرضا وتبعث الفطنة لدى الناس . ان البراهماتي يتحدث عن الحقيقة في صيغة الجمع « وان حسابنا للحقيقة هو حساب للحقائق في صيغة الجمع » (١٤) . مؤدى هذا الكلام الابتعاد عن واحدة الحقيقة والافرار بكثرة الحقائق على أساس من الذاتية المتطرفة .

وتطورا لما ذكره آنفا يؤكد جيمس على ان الحقيقة تصنع صنعا . فهي ليست صفة للفكرة مكونة فيها . « ان الحقيقة بالنسبة لنا اسم جمعي دال على سبل التحقيق تماما كالصحة والثروة والثوة الخ . . . فهي أسماء لسبل أخرى ترتبط بالحياة ويسعى في طلبها ايضا لان السعي في طلبها يجزي .

فالحقيقة تصنع تماما كالصحة والثروة والقوة في سياق الخبرة ومجراها » (١٥) .

ويردف قائلا : « ان الصدق العقلي أو الحقيقي يحدث لفكرة ما . انها تصبح صحيحة أو حقيقية ، ان الاحداث تجعلها صحيحة أو حقيقية . ان صدقها أو حقاها يكون في الواقع حدثا ، وسبيلا : ألا وهو سبيل اقامة الدليل على تحقيق نفسها » (١٦) .

وفي موضع آخر يؤكد ما يلي : « وصدقها هو في الواقع من الامر ، حدث ، سبيل ، ألا وهو سبيل اثباتها لنفسها ، سبيل برهنتها » (١٧) .

وهكذا ينتقل جيمس الى جانب هـام في نظرية الحقيقة ، وبكلمات أخرى انه ينتقل الى معالجة ما يسمى التثبيت نظرا لان الاخيرة هي التي تخلق الحقيقة .

ان التحقيق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة الى الحقيقي « فصحيح هي التسمية الدائنة على أية فكرة تبدأ سبيل التحقيق » (١٨) وبما ان الفكرة ، النظرية ، العبارة لم تتحقق منها فانها ليست صادقة ولا كاذبة . اننا اذ نشبت من الفكرة ، فاننا نصنع صدقها . فالتثبيت ، التحقق هو العامل الاساسي الذي يفضي الى صدق الفكرة . يكفي ان تكون الفكرة محققة في الماضي او يمكن ان نشبت منها في المستقبل لكي تكون صادقة . « ان التثبيت سواء كان فعليا أو مهنكا

(٧) وليام جيمس - البراهماتي - ص ٩١ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٣٦٤ .

(٩) نفس المرجع ، ص ٣٦٤ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(١١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(١٢) Brightman E. S. An Introduction to Philosophy. New York, 1961, P. 65.

(١٣) وليام جيمس - البراهماتي - ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٧ .

(١٥) نفس المرجع ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٧ .

(١٧) نفس المرجع ، ص ٣٥٢ .

(١٨) نفس المرجع ، ص ٢٤١ .

هو المعنى العقيق للصدق العقلي» (١٩) .

كما انه ليس من الضروري ان يتحقق كسلسل شخص من جميع الحقائق . فهذا الشخص يتحقق من هذه الفكرة وذلك ثبتت تلك الفكرة وهكذا دواليك . ان رفض هذه الفكرة او تلك لا بد منه عندما يحدث تناقض بين ما اعتبر صدقا وبين التجربة .

« ان الحقيقة تعيش في واقع الامر في معظمها على نظام النسيئة (التاجيل) بطريقة الائتمان وفتح حساب .

فأفكارنا ومعتقداتنا « تصرف » ما دام لا ينجدها أي شيء ، تماما مثلما تصرف أوراق النقد ما دام لا يرفضها أحد . بيد ان كل ذلك يشير الى تحقيقات مباشرة وجها لوجه في مكان ما ، بحيث ان نسيج الحقيقة او بنائها يتقوض بدونها ، تماما مثل اي نظام مالي ليس له رصيد على الاطلاق . فانت تقبل تحقيقي لامر ، وأنا أقبل تحقيقيك لامر آخر ، وهلم جرا ، فنحن نتداول ونتفارض الحقائق فيما بيننا . ولكن المعتقدات التي يقوم عليها الدليل بطريقة ملموسة محسوسة على يد شخص ما ، هي الدعائم التي يقوم فوقها البناء كله » (٢٠) .

لا مرأ في ان جيمس على حق عندما يؤكد على ان الحقائق التي نتبناها يجب ان تكون خائصة وقابلة للتحقق . فاذا كنا نستطيع تعريف الحقيقة ، على وجه العموم ، بانها مطابقة للفكرة للواقع ، فان العلم لا يقبل اية حقيقة غير خائصة للتثبت بصورة غير مباشرة على الاقل . ان الحديث لا يمكن ان يدور على صدق فكرة لا يمكن التحقق منها ميدانيا . فالعلم يتعامل مع الحقائق المثبتة والمحققة .

مما تقدم يتبين ان التحقق جزء لا يتجزأ من تعريف الحقيقة . ولكن هل هذا التوكيد يعني ان الحقيقة يجب ان تستحيل الى عملية التحقق ؟ كلا . ان عملية التحقق نفسها تفترض ما هو خاضع للتحقق ، فهي ذات معنى عندما تشير الى مضمون التحقق . ولهذا فان جيمس اذ حقق الصدق بالتحقق ، فقد اضطر ان يشير ثانية الى مضمون التحقق ، الى القدرة على العمل او فائدة الحقيقة .

حقا ان المعرفة الصادقة مفيدة للانسانية ، ولكن فائدة الفكرة لا تتطابق مع صدقها . فمن العلوم ان شخصا او مجموعة من الاشخاص تحقق المنفعة من تبني افكار خاطئة . كما انه معلوم ايضا ان افكارا تعكس الحالة الموضوعية للاشياء يمكن ان تكون غير مفيدة او ضارة لدوائر اجتماعية معينة . هذا النزاع القائم بين المنفعة والصدق يعتبر برهانا على ضرورة تمييز الحقيقة من الفائدة نظرا لان منفعة الفكرة ناجمة عن صدقها وليس العكس . انه غير جائز ان نستبدل كلمة صدق بكلمة فائدة كما تفعل البراجماتية . يقول جيمس « انها مفيدة لانها صحيحة » او « انها صحيحة لانها مفيدة » (٢١) .

والجدير بالذكر ان جيمس حاول ان يطبق هذا الفهم للحقيقة على الدين . فاذا كانت الافكار الدينية نافعة فانها صادقة نظرا لان الفائدة تفترض الحقيقة والحقيقة تؤدي الى الفائدة . وبهذا الصدق يقول جيمس ما يلي : « فاذا ثبتت الافكار اللاهوتية ان لها قيمة فسي الحياة الملموسة المحسوسة فهي افكار صحيحة بالنسبة للبراجماتية بمعنى انها نافعة الى هذا الحد . اما الى أي حد اكثر من ذلك هي صحيحة ، فذلك امر يتوقف كلياً على علاقتها بالحقائق الأخرى التي ينبغي الاعتراف بها ايضا » (٢٢) .

ينبغي القول ان هذا الكلام لا يتناقض أبداً مع جوهر البراجماتية . فقد ظن بعض الفلاسفة انها لا دينية الا انها في حقيقة امرها فلسفة « توسع مجال البحث عن الله » (٢٣) . وفي موضع آخر يقول : « ففي وسعها ان تظل دينية كالمذاهب العقلية ولكنها في نفس الوقت مثل

(١٩) فلسفة القرن العشرين ، ص ٢٤١ .

(٢٠) وليام جيمس - البراجماتية - ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٢٤١ .

(٢٢) نفس المرجع ، ص ٩٦ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

المذاهب التجريبية تستطيع ان تحتفظ بأخصب وأغنى صلة وثيقة بالوقائع والحقائق » (٢٤) .

ان هذه التوكيدات ان دلت على شيء فانما يدل على شعور جيمس بأن موقفه من الدين لا يتسجم مع فحواه الحقيقي . فالإيمان الاصيل لا يتمد على ما يحققه من فائدة لهذا الشخص او ذلك . ان تاريخ الحركات الدينية يشهد على ان كثيرا من الانبياء والمرسلين والمؤمنين عانوا الامرين من جراء ايمانهم . فالإيمان الصحيح يبنى على اساس من الاقتناع الشخصي . ان الفائدة نتيجة وليست سببا . « ان الاعتقاد بالله اذا كان مرجعه تقدير اثره في حياة صاحبه دون اكرات بحقيقة الايمان من الناحية الموضوعية الخالصة ، كان هذا الاعتقاد احتيالا وضلالا » (٢٥) .

ان المؤمن الحق لا يؤمن من أجل الوصول الى فوائد . فالإيمان في نظره مجرد من النتائج . وما اصدق برتراند راسل في نقد هذا الموقف عند جيمس حين قال : « ان هذا الرأي لا يقنع مؤمنا مخلصا في ايمانه ، لان المؤمن لا يطمئن الا متى استراح الى موضوع لعبادته وايمانه ، ان المؤمن لا يقول اني اذا آمنت بالله سعدت ، ولكنه يقول اني اؤمن بالله ومن أجل هذا فانا سعيد ، فالسعادة في نظره ليست علة ايمانه ولو اتم يكن لموضوع ايمانه وجود ، وانما هي ثمرة الايمان بعمود لا يشك مؤمن في وجوده ، ان الاعتقاد بوجود الله في نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتمل ان يترتب على وجوده من نسيئة وآثار » (٢٦) .

وعلاوة على ما تقدم ينبغي القول ان الحقيقة والكذب ، طالما انهما على صلة وثيقة بالمنفعة والاذى ، هما الخير والشر في الآن نفسه . ذلك لان الحقيقة التي تجلب الفائدة هي خير لنا بينما الباطل شر علينا . « فاحدهما يمكن ان تسمى خيرا والاخرى شرا بدون قيد او شرط » (٢٧) .

وهكذا يخاطب جيمس بين نظرية المعرفة والاخلاق . ان البحث عن الحقيقة يجب ان يعتمد كل الاعتماد عما تحققه من خير لهذا الشخص او ذلك . فالوضوعية هي الاساس في البحث عن الحقيقة . ان الذاتية كثيرا ما عاقت العلم في تطوره . صحيح ان الحقيقة يجب ان تكون في خدمة الانسانية ومحققة لخيرها ، الا انها قد تلحق الاذى بهذا الشخص او ذلك . وما مساواة الحقيقة بالخير الا توكيد اضافي على ذاتية جيمس المنظرية !

ان ايمان النظر في مضمون نظرية الحقيقة لدى وليام جيمس يكشف النقاب عن ان النجاح ، الفائدة ، الخير ، الترضيئة ... كل ذلك هو الاساس والمنطلق في فهم الحقيقة . وهذا يتفق كل الاتفاق مع فلسفة رجال الاعمال . ان البراجماتية اصدق تعبير عن مصالحهم وأهدافهم . ومما هو جدير بالذكر ان برتراند راسل اصاب عندما قال : « ان البراجماتية ما هي الا ظاهرة من ظواهر الروح التجارية فسي اميركا » (٢٨) .

والذي لا بد من ذكره ، اخيرا ، هو ان فلسفة جيمس انعكاس صحيح للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في اميركا . « ان فلسفته اميركية قلبا وقالبا » (٢٩) .

أحمد ماضي

عمان الجامعة الاردنية

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٢٥) توفيق الطويل - الفلسفة الخلقية : نشأتها وتطورها ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ٢٧٩ و

B. Russel, History of western Philosophy. P. 846

(٢٧) وليام جيمس - البراجماتية - ص ٢٧٢ .

(٢٨) فلسفة القرن العشرين ، ص ٢٤٨ .

(٢٩) الدكتور محمد فتحي الشنيطي ، في الفلسفة الحديثية والمعاصرة ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٨٥ .